والمتميّز في المجتمع المعنيّ: «يجب ألّا نبحث عن سر اليهودي في دينه، بل عن سر الدين في اليهودي الواقعي»[٥]. و«المسألة اليهودية تطرح بصورة تختلف تبعاً للدولة التي يعيش اليهود في ظلها»[٦]، أي ليست هناك مسألة يهودية بالمطلق. والدليل على ذلك انه لم تكن هناك مشكلة يهودية في آسيا، أو في افريقيا. سأل ماركس: «ما هو الاساس الدنيوي لليهودية؟»؛ وأجاب: «انها الحاجة العملية والمنفعة الشخصية. ما هي العبادة الدنيوية لليهودي[؟] انها المتاجرة. مَنْ هي آلهته الدنيوية[؟] انه المال». وجوهر اليهودية، في نظر ماركس، هو «المتاجرة وشروطها» ليس الّا. هذه المتاجرة التي تجعل المال إلهاً، و«أمامه لا ينبغي لأي اله ان يعيش». و«المال هو إله اسرائيل المطماع». و«لكن هذا الاله لم يبق الهاً يهودياً؛ فلقد اصبح اله اليهود الهاً دنيوياً، وغدا اله الناس». وعليه، «فان قومية اليهودي الوهمية هي قومية التاجر، قومية رجل المال»[٧].

فالمسألة اليهودية، والحالة هذه، تعود، في جوهرها الاساسي، الى عوامل اقتصادية ـ اجتماعية مادّية أكثر ممّا هي عوامل دينيّة. والحل للمسألة، في رأي ماركس، واضح: «فحين ينجح المجتمع في الغاء الجوهر العملي لليهودية، المتاجرة، وشروطها، عندئذٍ يصبح وجود اليهودي مستحيلاً؛ ذلك لأنه لا تبقى ثمّة حاجة الى ضميره؛ لأن الاساس الذاتي لليهودية (الحاجة العملية) قد اتخذت شكلاً انسانياً، وذلك لأن المنازعة بين الوجود الفردي والمحسوس للانسان ووجوده الاجتماعي قد أُلغيت. ان التحرر الاجتماعي لليهودي انما هو تحرير المجتمع من اليهودية»[٨]، وليس الزعم بالعداء الدائم لليهود بمجرد انهم يهود، وبكراهية الشعوب عامة لهم، واستحالة بقائهم في الشتات. والسعي الى ايجاد وطن لهم يقيهم من الاضطهاد. فها هي أكثرية اليهود تعيش اليوم خارج اسرائيل ولا تلقى أية كراهية أو اضطهاد؛ بل، على العكس، تلقى كل عطف وتقدير في اوروبا واميركا، ولا ترغب في الهجرة الى اسرائيل، على الرغم من اهتمام حكام اسرائيل البالغ بهذا الامر.

الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية الاوروبية والمسألة اليهودية

تباينت آراء منظري الصهيونية حول ماهيّتها وبواعثها. فمن احتفاظ الشعب اليهودي «بتفرّده التاريخي، والنفساني، والثقافي، والديني، وبالظواهر الجماعية التي تعبّر عن هويته»، الى الرباط الروحي المقدس والحنين المغرق في القدم، الى اللغة الحيّة المقدسة العبرية، الى «ان التوراة هي الوطن الام النائه للشعب اليهودي»، الى «الجذور التاريخية». ومن «الحق التاريخي»[٩]، الى «طهارة السلالة»، الى «التفوّق» والزعم ان اليهود هم «شعب الله المختار»[١٠]. لقد اقحم المنظّرون الدين كعامل عاطفي جذّاب لدفع اليهود الى الهجرة، ولكن ذلك لم يبدّل شيئاً من الصفة العلمانية للحركة الصهيونية[١١].

ومن الاستناد الى الاوهام الدينية غير الواقعية، البعيدة من الحقيقة الموضوعية، عمد منظّرون صهيونيون آخرون الى تزييف التاريخ، زاعمين ان الحركة الصهيونية، التي «تسعى الى خلق دولة يهودية... انما هي قديمة قدم العالم، لأن اليهود ظل يراودهم الحلم عبر آلاف السنين بالعودة الى فلسطين»[١٢]. واستطردوا الى ان الصهيونية قديمة قدم أَسْر الشعب اليهودي وتدمير الهيكل من قبل نبوخذ نصّر.

ومن الثابت بطلان مقولة قدم الصهيونية، ومقولة الحلم الابدي بالعودة الى فلسطين؛ ذلك ان قسماً كبيراً من اليهود آثر البقاء في بابل، بعد ان أَذِن لهم كورش بالعودة؛ اذ «كان من الصعب الاعتقاد بأن اليهود، وقد اثروا هناك، قد يتركون بابل الخصيبة المعطاء، من اجل جبال